

مفهوم الشعر لدى رواد الرومانسية عربيا

د. / عمر محمد العالم

كان الشعر وهو الفنُّ الأكثر استدعاءً وحضوراً لدى العربي ، كان هو الآخر قد أصابه ما أصاب الأمة من شرقها إلى غربها من وهن وضعف واستبداد ، وقد ظل المجتمع العربي كذلك حتى بدايات العصر الحديث والصدام الذي حدث مع العالم المتحضر في أوروبا من قبل مجموعات من الشباب وفي أمريكا .

وحتى بدايات العصر الحديث لم يكن الشعر أحد الألوان والأمور التي واكبت وتواكب نهضة التطور التي شملت جوانب الحياة المختلفة ، فقد : " ظلت الصورة الفنية في الشعر تستمد عناصرها من الماديات التي يراها الشاعر القديم في الطبيعة من حوله ، وظل شأنها كذلك لدى الإحيائيين ، غير أن الصورة لدى الشعراء الرومانسيين خُطت خطوات واسعة في النظرية والتطبيق فغدت أقرب إلى المعنويات ، إذا أصبحت وظيفة الصورة : " نقل عاطفة ، أو توضيح حالة ، أو بيان حقيقة " فوظيفة الصورة عندئذ هي : نقل المعنى مجملا ، وبعد أن كانت تُستمدُّ من المادي المحسوس أصبح الخيال مصدرا هاما ، ولم يعد للبيت المفرد وحدة مستقلة في القصيدة ، التي هي كل متلاحم لذلك فإن الصورة يمكن أن تنتظم فكريا مجموعة من الأبيات تعالج فكرة واحدة أو موضوعا واحدا معالجة فنية جديدة ¹ .

وفي العصر الحديث والمعاصر ، وما ألم بالمجتمع العربي فيهما من تغيرات وتطورات وحروب جرت على أرضه وشارك فيها مكرها أو راضيا وبدل أن يكافئ لمشاركته في الحروب إذ به يقع فريسة لأطماع المستعمر فيجزأ الوطن الواحد ويقسم كالعكعة بين مستعمره وفي ظل هذه الأوضاع بالغة السوء لم يكن ليبرز على الساحة الأدبية الحقبة الالون واحد من الأدب وهو أدب الشكوى والأنين والحسرة على الوضع الذي آل إليه الوطن والمواطن معا .

وهنا نجد أن (ثلاثة من شباب الأدب ظهروا في أخريات العقد الأول من القرن العشرين بعد أن تشبعوا بدراسة الأدب الانجليزي وهم : عبد الرحمن شكري ، العقاد ، المازني وكان شكري رائد هذه

1 - ينظر : الاعلام خير الدين الزركلي : دار العلم للملايين .

المدرسة ، وكان متمكنا من اللغة الانجليزية بحكم دراسته منذ السنة الأولى الابتدائية حتى تخرج في المعلمين العليا سنة 1909 م وأعجب كل الإعجاب بشعر الرومانسية الانجليزية : وردسورثوكولردج وشيلي وببيرون وكيتس وسكوت وأخذ عنهم كل ما أنتجوه في نهم وشراهة ، وهو في هذه السن التي تنفتح فيها المواهب وتوجه الملكات فتأثر بهم في الروح والمنهج وفهم فهما جديداً مهمة الشعر غير ما يفهمه شعراء العربية قبله ¹.

فمن خلال اطلاع هذه المجموعات على النتاج الأدبي في لغات الأمم المتحضرة كالانجليزية والفرنسية ومعايشة بعض من هذه الجماعات في تلك الدول هالهم ما رأوه وما سمعوه وعاشوه من فروق في الحياة وأسلوب التخاطب ، بل وما كان يشيع في المجتمع العربي من ألوان شعرية ماهي إلا صور باهتة بالية وأشكال وقوالب ميتة لاماء فيها ولارونق ولاحياة : " ولو أنك قرأت شعر شوقي أو شعر حافظ أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين ، والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه العلة إلا في أن شعراءنا يسرفون في الكبرياء فيؤثرون الجهل على العلم والكسل على العمل ويقرأون في الفضاء بدل أن يقرأوا حيث الناس ، وهل كان فيكتور هوجو ولامارتين من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا ، كلا إن الشعراء الغربيين كشعراء العرب القدماء يتصلون بعصورهم اتصالاً متيناً يقرأون ويدرسون ، منهم الطبيب ومنهم الطبيعي ومنهم صاحب الكيمياء ومنهم من يتصرف في فنون العلم المختلفة ² " .

والإنسان بطبعه يرى ماحوله ويصحح من خلال رؤيته تلك من وضعه وحله ليكون أداة فاعلة إلى الإصلاح والتغيير : " ومن هنا نجد أن الفسلفات الأوروبية قد أثرت في هؤلاء الشعراء الغنائيين من المصريين الذين ... نظموا القائد الغنائية في التشاؤم الذي كان من أسباب ماكان يعانيه الشعراء من حكم الاحتلال الإنجليزي في ذلك الوقت وافتقادهم تقدير الناس لفنهم ³ " .

1 - هم : عبد الرحمن محمد شكري عياد : 1304 - 1378 هـ 1886 - 1951م شاعر مصري من دعاة التجديد في الأدب

2 - عباس محمود العقاد : 1306 - 1383 هـ 1889 م إمام في الأدب مصري من الكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع - إبراهيم عبد القادر المازني : 1305 - 1368 هـ : 1890 - 1949 م أديب مجتهد من كبار الكتاب الاعلام .

3 - العمل الأدبي بين الذاتية والموضوعية مصطفى علي عمر ص 92

وقد يكون محتلاً أفضل من محتلاً غير أن الإثتين آخر الأمر يسلبان الوطن خيراته وعزته ويفرضان على المواطن فيه الصغار والمذلة فلا عزة ولا نخوة مع استعمار.

وبالنسبة لجماعة الديوان : " فقد أخذت اسمها من كتاب أصدره المازني والعقاد عام 1921 م باسم " الديوان " وفيه صفيا الحساب النقدي مع بعض أعلام المدرسة القديمة ، مدرسة الإحياء ، مثل : مطفي لطفى المنفلوطي ، أحمد شوقي ، حافظ ابراهيم مع صفحة جانبية أخيرة لمصطفى صادق الرافعي وقبلها خصام عابر لكنه انفعالي ومؤثر مع الركن الثالث في المدرسة عبد الرحمن شكري ¹ " وكان مقدراً أن تكون هذه الجماعة - جماعة الديوان - المزودة بثقافات عصرية آنذاك عن طريق اتقانهم للإنجليزية وماترجم وبترجم إليها من لغات حية أخرى ، كان مقدراً أن تكون هي : " الخطوة الأولى في تجديد الشعر العربي ونظريته ويبدو أن ثلاثي مدرسة الديوان تحديداً كان واعياً لدوره ومهمته وغايته ، ومن هنا رأينا هؤلاء : " الشعراء النقاد " الثلاثة يتقدمون بفهم نظري ومحاولات شعرية " تطبيقية " بل وتساند هؤلاء المجددين - عبر تبادل وتقديم الدواوين التي تقدم نظرية المذهب الجديد في الشعر ، كما أنهم طوال حياتهم تقريباً يعترفون بالتأثير المتبادل فيما بينهم في فهم واستيعاب النظرية الشعرية الجديدة ² "

وكان من الطبيعي جداً أن يكون الأدب متشماً بالسواد وأن يكون أدبا شاكياً متدمراً عند الأفراد النابيين والجماعات المتنورة لذلك كله لم يكن إلا للتيار الرومانسي العاطفي الذاتي أن يظهر على الساحة بقوة : " فبلادنا إذ ذاك كان يحكمها رجل يؤمن بنفسه أكثر مما يؤمن بشعبه وكان الشعب يحس منه ذلك ويأبى أن يستجيب له مما أدى إلى صدام عنيف بينه وبين الشعب لكي يسومه الخسف وسوء العذاب ، وكان هذا الرجل هو اسماعيل صدقي الذي مسخ الحياة البرلمانية مسخاً لم تستقم بعده على عود ، وكمم الأفواه واستنزل العباد ، وفي مثل هذا الجو كان من المستحيل أن يظهر أيُّ أدب غير أدب الشكوي والأنين لذاتي ³ "

1 - نظرية الشعر 3 مرحلة الإحياء والديوان تحرير وتقديم محمد كامل ص 12

2 - نظرية الشعر 3 مرحلة الإحياء والديوان تحرير وتقديم محمد كامل ص 13-14

3 - الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة 7-8

وكان المذهب الرومانسي هو الموافق جداً لحالة المجتمع البائسة آنذاك فليس هناك عند العامة إلا الفقر والجهل والتدمر والشكوى : " وكان طابع المدرسة الرومانسية هو البساطة في التعبير إذ هم في حال شكوى وأنين - وعدم التقيد بالمعجم الشعري ، بل كانوا يؤثرون الكلمات المألوفة الشائعة الاستعمال واهتموا بالنفس الإنسانية في صورتها البسيطة ، فلم يحفلوا بالملوك والأمراء ورجال الحاشية والأبطال على نحو ماكان يحتفي الكلاسيكيون ، بل راحوا يسبرون أغوار النفوس في دقة ووضوح¹ . وأدب بهذا الشكل لابد وأن يصطدم مع ماكان قائماً في المجتمع من أمور وأولها صراعه مع السلطة وذلك أن القائمين عليها من الإقطاعيين وذوي النفوذ يأبون النزول من على كراسيهم العاجية وعن الهالة التي ينعمون بها ويعيشون

في ظلها وإلى جانب أن الرومانسية تتشد تغيير الصورة الممقوتة المتمثلة في المجتمع في تقسيم أفرادها إلى أسياد قلة وعبيد خدم كثر وكان طابع المدرسة الرومانسية هو البساطة في التعبير والانصراف إلى الإنسان البسيط في المجتمع والنظر إلى مايمهه ويؤرق مضجعه والمشاركة في الرثاء على حاله .

وقد احتلت المرأة مكاناً بارزاً في الآداب العالمية . وفي الشعر خاصة ، وحين أعطى الأديب أو الشاعر في القرن الثامن عشر - اهتماماً كبيراً لذاتيته ، ولكيان الفرد ومشاعره : " بدأ شعر الحب أكثر إزدهاراً وراح الشاعر يتخلص من قيود الكلاسيكية والتقليدية التي كان يرست فيها وغدا ينشد عالماً أكثر رحابة وصفاء ، حيث يفكر فيمن يحب ولاثالث لهما إلا الطبيعة الجميلة الغناء بمناظرها الساحرة وظلالها الوارفة على نحو ما يلقانا عند لودبيرون وربما تمنى الشاعر أن يهجر الناس والطبيعة والأشياء جميعاً ليأوي إلى كنف من يحب فيعيشان للهو والجمال على نحو ما يلقانا عند الفريد دفني الذي كان ينفر من الطبيعة نفسها ولايأنس إلا بحبيبه² "

والرومانسية كانت عند محبيها تبحث عما كان مفقداً في المجتمع وهو بحاجة ماسة جداً إلى إحلاله فيه وأن يتبوا المكانة اللائقة به وهو إحترام الإنسان للإنسان ومحبتة له والإحساس بكرامة

1 - عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا ص 395

2 - عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا ص 295

الآخر وعدم امتهانه : " وإذا كانت الرومانسية قد مكنت لنوع آخر من الحبّ إلى جانب حب الرجل للمرأة ، وهو حبّ الإنسان للإنسان ، فالحب هو أساس الإخاء المنشود ، وهو أساس مجتمع صالح لا بغض فيه ، فإن من ثمرات هذا الحبّ أن ينظر المجتمع إلى المذنب بعين العطف والإخاء وهذا هو ما يشرحه فيكتور هوجو ، حيث يقول : " إن شريعة مقدسة في هذا العالم يتجلّى من طبيعة الأشياء والناس علينا أن نعمل بها ، وكل امرئ يستطيع أن يرثي إليها وهي لا تبغض أحداً ، فإمّا أن تحب الإنسان وإما أن ترثي له ¹ " فا إلى جانب حياة القهر التي كان يعيشها الإنسان البسيط العادي في ظل نظام الإقطاع والجبروت من قبل السلطة ومن ينظوي تحتها من أصحاب الثروات ، كانت الكنيسة تعمل على تكريس هذا النظام البغيض وإن من أهم خصائص المذهب الرومانسي التي تأثرها شكري هو البحث والتقصي واختيار الحياة والكشف عن خباياها ومعالجة أسرارها والطموح إلى العرفان والقوة ، كل هذه المثل العليا التي كانت منبع الخير ووسائل الرقي في الحياة وفي كل حضارة والتي سادت عصر جوته وشلي وبيرون بوضعها روح ذلك العصر قد تأثرها شكري وتأثر معها وصف شكسبير وبرونج للنفوس فتراه يخبرنا أنه تأثر من شعراء الغرب بجانبين أولهما : الخيال الرومانسي الذي يصف طموح النفس ، والجانب الثاني : التحليل النفسي ، ويذكر شكري أن الخيال الرومانسي الطافح يظهر في قصائد عديدة من شعره ، منها : " الباحث ، والأبد في ساعة ، وشهداء الإنسانية ، والعصر الذهبي ، والمثل الأعلى وإلى المجهول ، وغير ذلك من القصائد ² ولم يكن اللجوء إلى الطبيعة وحبها ومناجاتها إلا هرباً من الواقع الاجتماعي المزري الذي كان يعيشه المواطن البسيط العادي فلا الوضع المادي مرضي ولا الاجتماعي ولا حتى المأمول مستقبلاً في ظل هذا اللون من الحكم ، لذا أحب الرومانسيون الطبيعة وأنشدوا حبهم لها و للريف ، فهموا أن عواطف الناس - الشعراء خاصة - تكون وحدة مع صور الطبيعة الجميلة الخالدة فكان هيام وردزورت بالطبيعة التي يراها ينبوع الشعر الحق ، وكان هذا فهم جديد للشعر ورسالته ولدور الطبيعة فيه وامتزاج عواطف الشاعر بالطبيعة ، ذلك الفهم الجديد الذي نقله عبد الرحمن شكري

1 - عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعراً ص 249

2 - عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعر ص 168-169

وتأثره من الرومانسيين ، وكان هذا هو الفكر النقدي الذي حمل رسالته شكري ، والذي يعلي من شأن الطبيعة ، حيث يقول الشاعر : " ولكن رسول الطبيعة ترسله مزوداً بالنعيمات العذاب كي يصل بها النفوس ويحركها ويزيدها نوراً وناراً ، فعظم الشاعر من عظم إحساسه بالحياة ، والشعر الصادق في نظر وردزورت وشكري هو الذي يبدوا وكأنه جزء من الطبيعة ، مثل : النجم ، أو السماء ، أو البحر ¹ " ويبدو ان الأوضاع المعيشية للإنسان العادي في الغرب من ناحيته وما أنجزه العصر من قفزة معرفية وحضارية جعل الانسان العادي في أوروبا ينظر لنفسه ووضعه محاولاً التغيير وهو دائماً في عمل دؤوب نحو الأفضل : " وكانت الطبيعة عند أصحاب الرومانسية الأوروبية ومن تأثروا بهم من شعراء جماعتي : " الديوان " و " أبوللو" تعكس مشاعر الشعراء وتعبر عمّاً في نفوسهم من عواطف و خلجات وتكشف عن أفراحهم وأحزانهم وتسعد لسعادتهم وتشقى لشقائهم فكانوا أبناء لها ، أو بالاحرى كانت الطبيعة في أعمالهم الأدبية كالأم الرؤوم تخفف عن آلامهم وكان الارتباط بالطبيعة أو كمال الاتصال بها يظهران نفس الشاعر الرومانسي ويحققان عنده التوازن النفسي ² .

وإن ظهور شيء يشبه الديوان أو يشبهه عمل الديوانيين في ثورتهم وتنظيرهم لا في نتاجهم بجملته – كان مطلباً طبيعياً للعصر ، حيث أن الحياة والمجتمع بدأت تظهر عليهما علامات التغيير والتطور في كل مناحي الحياة لدى الغرب ولم يعد للكنيسة ذلك السلطان ولاتلك السلطة وأصاب المجتمع العربي شيء ما أصاب تلك المجتمعات والأمم وكان الأدب الرومانسي هو من أوقد شعلة التغيير وهو بصورة أو بأخرى كان وراء ما نشاهده حديثاً وما ننعّم به الآن .

وربما كان تراث مدرسة شكري في النقد والتنظير الجمالي أروع بكثير من اسهاماتهما الشعرية فقد استطاعت بالنقد أن تهدّ صرح المدرسة الكلاسيكية في الأدب وتجدد بوضوح ماهية الشعر وطبيعة الخيال ، ووظيفة الشاعر ومجال اهتماماته من وجهة واعية بالذات الرومانسية ، وبالدرس الحقيقي للفن المعبر

عنها⁽³⁾ .

1 - عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعراً ص 27

2 - العمل الأدبي بين الذاتية والموضوعية د/ مصطفى علي عمر ص 86

3- عبد الرحمن شكري ناقداً وشاعراً ص 404

مصادر البحث ومراجعته

- 1- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الخامسة ، 1980 .
- 2- ديوان عبد الرحمن شكري ، مراجعة وتقديم فاروق شوشة المجلس الأعلى للثقافة لا ط 2000م .
- 3- عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعراً ، عبد الفتاح الشطي دار قباء للطباعة لا ط 1999م.
- 4- الشعر المصري بعد شوقي ، الحلقة الاولى ، جماعة الديوان د/ محمد مندور ، نهضة مصر ، لا ط ، د ت .
- 5- العمل الأدبي بين الذاتية والموضوعية د/ مصطفى علي عمر دار المعارف ، لا ط 1988م
- 6- في الأدب الحديث د/ عمر الدسوقي ، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة السابعة 1966م .
- 7- نظرية الشعر عند الشعراء النقاد في الأدب العربي الحديث ، مرسي ، دار الفكر اللبناني ، الطبعة الاولى 1984م .